سير قوين بل، إدارة السودان فى الحكم الثنائى،
إعداد بشير محمد سعيد، الخرطوم: (دارجامعة الخرطوم
للنشر، ١٩٨٨) ٢٠٠ صفحة، ١٥ جنيها.

-

هذا الكتاب ترجمة عن الانجليزية للجزء الخاص بالسودان فى مؤلف قوين بل Shadows on the Sand: The Memoires of Sir Gawain Bell, (C. Hurst and Company, London, 1983).

ومؤلفه كان قد التحق بالخدمة الادارية فى السودان عام ١٩٣٠، وظل بها لمعظم السنوات حتى مغادرته السودان فى ديسمبر ١٩٥٤.

يقع الكتاب فى ١٣٢ صفحة، ويتكوّن من مقدمة وثمانية فصول هى: (١) التنظيم الادارى فى السودان، (٢) شرق السودان ١٩٣١-١٩٣٣، (٣) مركز القضارف وأعماله، (٤) كردفان وجبال النوبة ١٩٣٣-١٩٣٨ (٥) الادارة مسئوليتها ومشاكلها، (٦) العودة الى السودان ١٩٤٥-١٩٤٩، (٧) مصر ١٩٤٩-١٩٥١، (٨) الحكم الذاتى فى السودان ١٩٥١-١٩٥٤.

والكتاب ممّا تستفيد منه ثلاث مجموعات من القرّاء، وهى الادارى والقارئ العام والباحث فى تاريخ السودان السياسى الحديث. وتتفاوت هذه المجموعات فى حجم الاستفادة وأرجّح أنّ فائدة الادارى هى القصوى. فعلى تعرّض الكتاب ببعض الجوانب السياسية والتاريخية إلا أنّ التركيز كان على الجانب الادارى. فقد تناول المؤلف أهمية التدريب الادارى للاداريين والأسس اللازم اتباعها فى تصريف المسئوليات الادارية مثل الكياسة وحسن التصرّف والادراك والمثالية، والتحلى بالصبر فى معاملة المواطنين ومخالطة الأهالى، والاعتياد على طريقة حياتهم، والدقة فى المواعيد، وأهمية العمل الميدانى للادارى والأسفار المتصلة لتصريف المسئوليات.

تحدث الكتاب أيضا عن التقسيم الادارى للسودان الى مديريات ومراكز وتغيّر الادارة من عسكرية الى مدنية. ومع ذلك لم يتوقف الكاتب لذكر الأسباب التى أدّت الى دمج جبال النوبة فى مديرية كردفان فى أعقاب العشرينات، ثم تقسيم الجبال الى منطقتين إداريتين. ونهج التعميم هذا قد سار عليه المؤلف فى أحيان كثيرة

فهو يذكر الأحداث دون الخوض فى أسبابها.

وتطرّق المؤلّف الى دراسة الأصول العرقية لبعض القبائل وأهمية معرفة هذه الأصول بالنسبة للادارى لتحسين أدائه. ومن الجانب الشخصى يمكن تقديم التماس قوين بل للبقاء بجبال النوبة بعد ما تقرّر نقله منها، لتذكير بعض إداريى اليوم الذين يرفضون العمل فى المناطق النّائية. هذا التركيز على الجوانب الادارية ممّا يفسّر إهداء الكتاب للادارى القدير مكاوى سليمان أكرت.

أمّا القارىء العام ويشمل هذه الأجيال التى لم تعاصر هذه الأحداث فسيجد متعة فى التفاصيل الدقيقة فيما ذكره الكاتب عن سماحة الشعب السودانى وأصالته وشجاعته، وكرمه، وما يمتاز به من صفات نبيلة، وإشادته بحب السودانيين للعمل الجماعى، والعمل الشاق الذى قاموا به (مثل شق طرق العربات)، فى المناطق الوعرة، كما يعطى الكتاب فكرة عامّة عن طبيعة المناطق التى عمل بها المؤلّف، المناخ السكان، السماحة، القبائل .... الخ. ومن الجوانب التى يمكن أن تكون ممتعة للقارىء العام السرد التفصيلى لبعض جوانب حياة المؤلّف الخاصة، والوصف العصرى لبعض الشخصيات وهى الأجزاء التى تعطى انطباعا عن الكتاب بأنّه ذكريات أكثر من مذكرات.

تأتى بعد ذلك هذه المجموعة الثالثة والأخيرة من القرّاء وهى مجموعة الباحثين والمهتمّين بتاريخ السودان السياسى الحديث خلال الحكم الثنائى. فقد كرّس المؤلّف الفصلين الأخيرين للجوانب السياسية فى الفترة ١٩٤٩-١٩٥٤م. وهذا بالطبع ناتج من وضع المؤلّف آنذاك فقد نقل وقتها للعمل فى وكالة حكومة السودان بالقاهرة. ثم للعمل فى القسم السياسى التابع لمكتب السكرتير الادارى بالخرطوم علاوة على أنّ الفترة شهدت تطوّرات سياسية هامّة أعقبت انتشار الوعى السياسى فى السودان ما بين (١٩٤٥-١٩٤٩). لذلك فإنّ الفصلين الأخيرين أكثر إفادة للباحث فى تاريخ السودان الحديث. إنّ تعرّض المؤلّف للأحداث السياسية التى انتهت بتوقيع اتفاقية ١٢ فبراير ١٩٥٣ بين بريطانيا ومصر، الخاصة بالحكم الذاتى وتقرير المصير للسودان قد تعرّضه للانتقاد. فالكثيرون قد يختلفون معه فى قوله إنّ الادارة البريطانية فى السودان لم يكن لديها يد فى تكوين الحزب الجمهورى

الاشتراكى فى عام ١٩٥١. وكذلك فى حديثه الملىء بالاعجاب والاشادة بجون مفى الحاكم العام (١٩٢٦-١٩٣٤)، وهارولد ماكمايكل السكرتير الادارى فى حين ارتبط اسم الأول بالتوسع فى سياسة الحكم غير المباشر، وعداء المتعلّمين، وارتبط اسم الثانى بتقنين سياسة الفصل بين الشمال والجنوب. ومن ثم يبدو نقل المؤلّف لمقتطفات من صحيفة هولندية فى عام ١٩٣٠ عن المجهودات البريطانية فى بسط الرخاء ونشر التعليم فى السودان غير موفق فى وقت حورب فيه التعليم. كما أنّ جرأة المؤلّف فى إبداء وجهة نظره فى مسائل شائكة ممّا يعرّضه للنقد أيضا. ومثال ذلك ما ذكره عن أنّ نهضة السودان - كما يفهمها فى ذلك الوقت - لم ترق الى مستوى التقدّم به الى الاستقلال أو حتى الحكم الذاتى، وهو أمر يختلف فيه معه معظم السودانيين. وعموما عاد المؤلّف ليدرك حقيقة أنّه كلّما انتشرت أسباب الوعى بين الناس كلّما اشتدّت رغبتهم فى الخلاص من الاستعمار.

ولن يخلص هذا العرض دون الاشادة بأمانة المؤلّف فى انتقاده لبعض جوانب السياسة البريطانية فى السودان، ومنها تخفيض العمالة الذى تلا الأزمة الاقتصادية فى عام ١٩٢٩م. وكذلك انتقاده لاعتراض كبار الموظفين البريطانيين على ترقية السودانيين فوق درجة المأمور، وبطء الادارة البريطانية فى سودنة الخدمة المدنية، واعترافه بأنّ مسئولية الحكم المستقبلية كانت تقع على كاهل الطبقة المثقفة لا على الزعماء القبليين. كما انتقد أيضا سياسة الادارة البريطانية فى الجنوب، وعدم نقل الاداريين الشماليين للعمل فى الجنوب، الشىء الذى كان يمكن أن يحدث قبل الحرب العالمية الثانية، ويقرّب من الشقة بين شطرى القطر. ورغما عن هذه الأمانة المحمودة تجاهل المؤلّف دور الادارة البريطانية فى تعميق الخلاف بين طائفتى الختمية والأنصار، رغم تعليقه بأنّ العداء والتباعد بين الطائفتين كان فرصة مواتية انتهزها المصريون لتعزيز موقفهم.

ونخلص الى القول بأنّ هذا الكتاب بما اشتمل من محاسن ومثالب إضافة للمكتبة السودانية.

فدوى عبدالرحمن على طه